الأنفاس الأخيرة للأندلس الصغيرة

دلـــــــــــــس

تأليف

عامر شعباني

الإهداء

أهدي هذه الصفحات من كتاب :

« الأنفاس الأخيرة للأندلس الصغيرة»

إلى سيِّدي الفاضلِ، رمزِ البركات، ومصباح الحلقات، شيخي الرُّوحي في المناجاة، وإمامي في الصَّلوات، وأستاذي في العبادات:

مُرشدي الشيخ الحافظ، حَسَن صابِر، طيَّبَ الـلـه ثراهُ، وأسكنَهُ فسيحَ جنانِهِ، آمين، والحمدُ لله ربِّ العالمين.



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله مكوّر اللّيل على النّهار، ومصرّف أقدار الأزمنة والأمصار، تبصرة لذوي القلوب والأبصار، وأشهد أن لا إله إلاّ الله الواحد الفرد الصّمد وأكبّره تكبيرًا، وأشهد أنّ محمّدا عبده ورسوله وخليله وصفيّه، صلّى الله عليه وآله وسلّم تسليمًا كثيرا، وبعد:

فإنّه يسعدني أن أقدّم ثمرة جهد وكدّ بذلته من أجل رفع راية مدينة السّلام والأحلام والأنغام والرّياحين؛ سلام الحضارة والمدنية، وأحلام أهل العلم والنّهى، وأنغام تماوج البحر مع أوتار العود ولحن الكنار، وشذى عبق رياحين الفلّ والياسمين.

تلك المدينة التي طوت آلام الجزائر أخبارها، وطمس جيل الحداثة آثارها، ودبّت إليها البداوة فذهبت نظارتها، فأنكرها الآباء ونزع عنها الأبناء، وانتكست أعلامها، فاشتاق البلبل لأنس أسمارها، والنّسيم لعبق رياحينها، وحنّ الموج لذكر بحّارتها وخفق أشرعة مراكبها، وهَفَتْ الأسماع إلى لحن أوتارِ عُودها، والأبصارُ إلى جمال ورِقّة أنامِل فنّانيها.

دلّس التي افترش إنسان ما قبل التّاريخ أرضها، وتدثّر بسمائها، واختطّ مدينتها الفينيقيون؛ غفل عن ذكرِها أهلُها، فأفَل نجمُها من سماء الحواضر وأمّهات المدن، وتراجعت سُمعتها في سلمّ التّمدّن، وجَهِلَ تاريخها من كان خارجًا عن أسوارها، وأُوصِدَت دُونَه أبوابها، فضاق فضاؤها بعد أن كان رحبًا، وهجَرَها أحلامُها بعد أن كانت قِبْلَةً لأهل العلم والإمامة في الدّين والدّنيا، يحجُّ إليها الرّحّالة ويؤمُّها القادةُ والملوك والأمراء، ويتغنّى بها الشُّعراء.

دلّس التي طمع في لطافة صيفها ودفئ شتائها وخيرات أرضها وبحرها كلّ من ساد عصره من الدّول والممالك والامبراطوريات التي توالت على البحر الأبيض المتوسّط، والتي كانت حاضرةً في حربهم وسلمهم، آخذةً من فنّهم وذوقهم، تتوارث العلمَ والمدنية جيلاً عن جيل؛ انقطع سندها، وانتثرت حبّات تراثها إلاّ من آثار رَسمٍ اندَرَس أو بقايا من فنٍّ وجمالٍ وذوقٍ وخُلق انتَكَس.

لقد حدث تغيّرٌ رهيب مسّ كلّ ما يتعلّق بثقافة ولغة وأخلاق وفنّ المجتمع داخل المدينة وفي

ضواحيها، حتّى إنّه لينكر المرء نفسه، ولعلّ هذا كلّه هو الباعث الحقيقي الذي كان رائدي في عملي هذا الذي أرجو أن يجعله الله في ميزان حسناتي وأن يكون صدقة جارية تمدّني بالأجر عند انقطاع العمل.

إنّ دراسة تاريخ وثقافة ولغة وعادات وأعراف مجتمع ما تحتاج إلى أكثر من كتاب، بل يحتاج التّاريخ وحده لأكثر من مصنّف، بَلْهَ أن تكون في حاجة لأكثر من متخصّص، إذ أنّ الأصل أن يكتُب كلّ متخصّص في فنّه، فالمتكلّم في غير فنّه قد يأتي بالعجائب كما يقول المثل، إلاّ أنّني لا أزعم أنّي قصدت هذا في بحثي، إنّما هذا جهد المقلّ أريده أن يسدّ ثُلمَة في بابه، ويضع لُبْنة أخرى في بناء كتابة التّاريخ الثّقافي والفنّي لمجتمعنا الذي انقطع عن ماضيه الثّقافي، وانفصل عن قيمه لغة وأخلاقًا وفنًّا وذوقًا، ولمدننا التي اندرست معالمها الحضارية، وفقدت خصائص فنّها العمراني.

وأستدرك على قولي بأنّ عملي هذا ليس تأريخًا بالمعنى الاصطلاحي المعروف، إنّما هو جمعٌ للمادة الخام من عاداتنا وأعرافنا وتقاليدنا ولغتنا، وألبُوم صورٍ وسمفونية ألحان من فنّنا، وتعبيرٌ عن ذوقنا الجمالي وإحساسنا الشّعوري؛ نقلناه عن آبائنا وأمّهاتنا شفاهًا وتربية وقدوة وذوقًا، كما جمعنا بعضه من مظانّه ومصادره المكتوبة وإن قلّت. نقدّمه لنشجّع المتخصّصين في التّاريخ والنّفس والإجتماع واللّسانيات على البحث كلٌّ في فنّه وبمنهجه الخاص الملائم، لنُسهم معًا في تحديد معالم مجتمعنا وقيمه، ولتخفق فينا من جديد روح العزّة بقيمنا وأخلاقنا فنتمثّل تراثنا وفنّنا في حاضرنا، ونورّثه لأبنائنا في مستقبل أيّامنا.

إنّ المتصدّر لمثل هذا البحث ليجد صعوبة بالغة في البحث عن المصادر والمراجع المتخصّصة والتي تعتبر ضرورية خاصّة إذا تعلّق الأمر بتاريخ المدينة القديم والمتوسّط، فإذا استثنينا المصادر القليلة التي أشارت إلى تاريخ المدينة وبالتّبع لا بالأصالة، فإنّ المراجع الحديثة تكاد تكون معدومة.

وقد كتب بعض الباحثين على قلّتهم عن مدينة دلّس وأولوها عنايتهم، لكنّ دراساتهم كانت مخصّصة كلّها فيما وسعني الإطّلاع عليه للجانب التّاريخي للمدينة، فكتب عنها بعض المؤرّخين كابن خلدون من القدماء فقد ذكرها في تاريخه في نحو ثمانية عشرة موضعًا، ومن المحدثين كتوفيق المدني في: "كتاب الجزائر"، وعبد الرحمن الجيلالي في كتابه: "تاريخ الجزائر العام"، كما كتب عنها بعض الرحّالة كمحمّد بن محمّد الإدريسي في: "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، والورتيلاني في: "الرّحلة الورتيلانية"، وحسن بن محمّد الوزّان الفاسي المشهور بـ"ليون الإفريقي" في: "وصف إفريقيا"، كما كتبت الباحثة أنا ماسكريلو بحثًا أثريًا (أي: أركيولوجي) باللّغة الفرنسية عنوانه: "دلس المدينة الأثرية الجزائرية". ونشرته في "مجلّة تاريخ وحضارة المغرب". وهو بحثٌ جاد في بابه يكشف عن تاريخ المدينة الأوّل، ويثبت بالدّليل العلمي على وجود إنسان ما قبل التّاريخ بالمنطقة.

وممّا أثلج صدري وكشف كربي في هذا الباب ما صدر حديثًا من أشهر قلائل عن مدينة دلس ممّا ألّفته إبنة المدينة البارّة بها الأستاذة د/ ياسمينة شايد، وهو بحثٌ باللّغة الفرنسية **بعنوان:** "**Algérie Dellys Aux Mille Temps**"، إلاّ أنّه لم يسعن الإطّلاع عليه إلاّ بعد أن أكملت كتابي هذا، أرجو أن أستفيد منه في طبعات أخرى قادمة بإذن الله تعالى وتوفيقه.

كما أوجّه ثنائي وتشجيعي للباحث الشّاب الأستاذ الجامعي والمتخصّص في علم اللّسانيات مصطفى الأمين سواق الذي أجاد في بحثه عن اللهجة المحلّية للمنطقة ونبّه على بعض خصائصها اللّغوية واللّسانية كما في مسألة جموع التّكسير فيها ومسألة التّصغير وغيرها، وفّقه الله وأعانه وأجزل مثوبته.

من ناحية أخرى وباعتبار أنّ بحثي غير متعلّق بالجانب التّاريخي السّياسي فقط والذي أعتقد أنّني لم أعره كبير اهتمام في هذه الطّبعة، وأنّه لم يشغل حيّزًا كبيرًا لاعتقادي بأنّ هذا الجانب قد كتب فيه، - بالرّغم أنّ ذلك لم يزل بعد في حاجة إلى جمع ما هو متفرّق في المصادر كابن خلدون وغيره، ثمّ ترتيبه وتهذيبه-. فسيجد القارئ أنّني جعلت أكثره متعلّقًا بثقافة أهلها وتنظيم مجتمعها بتفصيل القول في عاداتهم وأعرافهم في مراسيم زواجهم وأعراسهم، واحتفالاتهم الموسمية وأسمارهم، كما أوليت اهتمامًا خاصًّا بلهجتهم من خلال أقوالهم وأمثالهم ومصطلحاتهم الخاصّة التي لم يشاركهم فيها غيرهم خاصّة فيما تعلّق ببعض المصطلحات الخاصّة بالبحر وحرفته أو المناخ أو أسماء الأماكن وغيرها، كما أشرت إلى فنّهم بالكلام عن أراجيزهم وأناشيد أطفالهم وأشعارهم الشّعبية وغنائهم، وإلى عمرانهم وأعطيت صورًا عنها، وإن لم يسعن الوقت لأن أفصّل الكلام عنها وصفًا واكتفيت في ذلك بالصّور. كما خصّصت جزء منه للكلام عن حرفهم وصنائعهم، ومثّلت لبعضها بصور عن منتوجاتها كما هو الحال في صناعة الدّوم والفخّار، وبعض الأدوات التّقليدية.

كما أعترف بأنّ أهمّ مصادري في هذا الباب كانت شفوية، إمّا رواية عن الأجيال التي عاصرتها، أو تلك التي اكتسبتها بحكم التّربية والتّوريث والتّعليم، خاصّة أنّني عشت مرحلة زمنية كانت المدينة لا زالت محافظة بعد على خصائصها الثّقافية والإجتماعية والفنّية والذّوقية.

وقد اشترطت في نقل الخبر - ممّا لم أكن أعلمه - عدالة القائل ومكانته عند أهل المدينة، فلم أنقل عن الذين عرف عنهم الكذب، أو كثرة الكلام الذي ينسي بعضه بعضًا، وإن رأيت أنّ الرّواية اختلفت أكثرت من السّؤال حتّى يتبيّن لي ما أظنّه صحيحًا فأعتمده، وإن ارتبت في شيء تركته ولم أعرض له. وإعتمدت في أكثر رواياتي على كبار السنّ من العائلات المعروفة والملتزمين بصدق الحديث وحسن الدّيانة وإن قلّوا.

بالإضافة إلى شحّ المصادر والمراجع وقلّتها، والتي يمكن أن تستدرك في مثل هذا البحث بالمصادر

الشّفوية والرّواية المتواترة وعمل أهل المدينة خاصّة فيما غلب على هذا البحث من مواضيع كالثّقافة والفنّ والذّوق أو اللهجة والإصطلاح، فإنّني وجدت صعوبة كبيرة في اختراق حاجز الصّمت الذي يلفّ بعض أبناء المدينة ولا مبالاة بعضهم حول آثارهم وبعض ما يملكونه من معلومات أو مخطوطات أو معالم عمرانية في بيوتهم، وممّا حدث لي من ذلك أنّني سألت أحدًا ممّن كنت أظنّه أهلاً لأن يسأل وخاب ظنّي فيه؛ قلت له: "سمعت الكبار يتحدّثون عن الرّايس حميدو وعن داره بالمدينة، ألا تعرف في أيّ حيٍّ كانت؟"، فردّ عليّ قائلاً: "النّاس الآن يسألون عن الأحياء والجديد وأنت تسأل عن دار خربت، وناسها ماتوا من قرون، أما زلت نائمًا؟" قالها لي في جمعٍ من أصحابه، فإلتزمت الصّمت ولم أشأ أن أسايره في غفلته وجهله. كما حدث لي مرّة أن سألت عن بعض المخطوطات التي تيقّنت أنّها موجودة عن أحدهم قد ورثها من أبيه، فأنكر ذلك وجحد، وقد رآها عنده غير واحد وذلك لعلمه بأنّي أبحث عن كلّ ما يتعلّق بتاريخ وثقافة المدينة. ومن ذلك أيضًا أنّني أردت أن آخذ صورًا عن أحد البيوت التي حافظت على خصائص عمرانها القديمة وتمثّل بحق معلمًا من المعالم الفنّية، فغضب صاحبها ورفض رفضًا قاطعًا كأنّ الأمر لا يعنيه، ولا يشرّفه أن يسجّل بيته كقيمة فنّية يرجع إليها المختصّون، وما كان إلاّ أن هدمه زلزال ماي 2003م بعد ذلك بأشهر فخسرت المدينة تحفة فنية نادرة لم نستطع أن نترك لها ولو صورة تعيننا على بناء مثلها.

وممّا هو دينٌ علينا يجب الوفاء به الثّناء على من أعاننا على إخراج هذا البحث إلى النّاس، ذلك أنّه كما روى التّرمذي في سننه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لم يشكر النّاس لم يشكر الله"، وكما روى جابر مرفوعًا: "من صُنِع إليه معروف فليجْزِ به، فإن لم يجد ما يجزي به فليُثْنِ، فإنّه إذا أثنى فقد شكره، وإن كتمه فقد كفره، ومن تحلّى بما لم يُعْطَ كان كلابس ثوبي زور". وممّن أعاننا في ذلك خاصّة في جانب التّرتيب والتّهذيب إبننا البار الأستاذ يوسف شعباني والذي ساهم أيضًا في مراجعته الأخيرة تصحيحًا وإثراء، ومنهم السّيد محمود بلهاوة، والأمين سواق، وإيمان وأحمد حدّادو الذين قاموا بعملية تصوير جلّ ما وضعناه في كتابنا.

كما لا يفوتني أن أذكر إبن المدينة الفاضل الأستاذ الدّكتور مصطفى سواق الذي كان له كبير الفضل في دفعي إلى إخراج هذا العمل للوجود، بتشجيعه وتوجيهه وإدراكه لأهميّة البحث وحاجة مدينتنا لمثله.

بالإضافة إلى ذلك أشكر خاصّة باسمي واسم كلّ أبناء مدينة دلّس إبن المدينة الوفيّ الأستاذ الفاضل محمّد مختار مولودي صاحب درا الوعي للنّشر والتّوزيع الذي بادر من الوهلة الأولى من سماعه بوجود هذا البحث إلى الاتّصال بنا للتّكفّل بطباعته ونشره وتوزيعه خدمة منه لتراث مدينته التي أحبّها ويسعى جهده

لخدمتها، وفّقه اللـه وجزاه عنّا وعن أهل المدينة كلّ خير.

إنّ ممّا يجدر بنا التّنبيه عليه أنّنا لم نشترط في بحثنا هذا التّعليق على بعض عادات وأعراف المدينة أو بعض مقالاتها أو أمثالها التي يمكن أن تكون مخالفة لما ينبغي أن يكون عليه المسلم في اعتقاده وقوله وعمله، كبعض مظاهر الشّرك التي كانت متفشّية في بعض كلامنا، أو أعمالنا لما نتج عن تجهيل المستعمر بتحريمه على المجتمع تعلّم دينه ولغته، والتي نحمد اللـه على أنّها انعدمت اليوم بسبب الوعي المتفشّي في هذا الباب. ذلك بأنّ هدفنا الابتدائي إنّما كان جمع المادة الخام التي يمكن لنا أو لمن يأتي بعدنا أن يثريها، ويدرسها دراسة تُنبّه على مثل هذه المسائل وغيرها ممّا كان في ذهني أن أُفصّل فيه إلاّ أنّه لم يسعن أن أوفّ به لأسباب كثيرة.

ولعلّ القارئ قد يستدرك عليّ الكثير من التّفاصيل والمسائل في اللـهجة والاصطلاح والعادات والأعراف وغيرها، أرجو أن أعذر لتقصير قد يكون منّي في ذلك رغم أنّي لم أزعم الاستقراء التّام، ولم يكن في وسعي ذلك فهذا يحتاج إلى جهد تراكمي وبناء متواصل أرجو أن أكون قد وضعت مع غيري ممّن ذكرت أو أغفلت أولى لبناته.

في الأخير أسأل اللـه تعالى أن أكون قد وفّقت إلى بعض ممّا كنت قد قصدت إليه من جمع ما تفرّق عند غيري أو ممّا كان خالصًا من بحثي واجتهادي، وأن يكون خراجه وثمرته صدقة جارية، وأن يتقبّله اللـه ويرضى عنيّ، إنّه سميعٌ قريبٌ مجيب. وصلّى اللـه على سيّدنا محمّد وآله وسلّم.

عامر علي شعباني

دلّس في: 26**ربيع الأوّل** 1430**هـ**

الموافق: 22 **من مارس** 2009**م**



تمهيد

متّى أسّست مدينة دلس؟

صفة أهلها

تعاريف عامّة

1- تعريف الأب لويس معلوف اليسوعي

2- تعريف ليون الإفريقي

3- تعريف أحمد توفيق المدني

4- تعريف الإدريسي في نزهة المشتاق

أسماء مدينة دلس

مكانة مدينة دلس بين المدن الجزائرية

تمهيد

تعتبر مدينة دلس من أهمّ المدن التّاريخية والأثرية على السّاحل الجزائري، وما زالت الشّواهدُ المادية والأثرية شاهدةً على رسوخها في سلّم الحضارة وعلى عمق تاريخها و أصالتها، فقد عاصرت الكثير من الحضارات الإنسانية بدءا بعصر ما قبل التاريخ، ثمّ الحضارة الفينيقية، والرّومانية، والبيزنطية فالوندالية والإسلامية والإسبانية والفرنسية[1].

متّى أسّست مدينة دلس؟

لم أجد في كتب التّاريخ التي توفّرت لديّ تحديدًا لتاريخ تأسيسها بالضّبط، غير أنها مرّتْ عليها زلازلُ شديدةٌ هدّمت خلالها أجزاء منها، وبقيت أخرى، مع ما تخلّل تاريخها من غارات وحروب، دمّرت فيها المدينة وذهب كثيرٌ من أسرارها معها. ولعلّ تعدّد المقابر التي تحيط بالمدينة، والآثار التي ما فتئ يجدها سكّان المدينة تحت الأرض والتي هي عبارة في كثير من الأحيان عن أحجار بناء ودهاليز عميقة، وقلل من الفخّار وغيرها ليدلّ على ذلك. ومن الرّاجح أنّ مكانتها برزت في عهد الفينيقيّين كمركزٍ تجاريٍّ معوَّلٍ عليه.

صفة أهلها

عبْرَ تاريخ المدينة الطّويل لم يكن من السّهل التّعاملُ مع أهالي دلس الأصليين بالقوّة والعنف وإظهار الكبرياء عليهم؛ لأنّ ذلك كان يزيدُهم صلابةً وشدَّة وعناداً ومقاومة، خاصّة لمن يتعالى عليهم، أو ينظر إليهم من فوق، فقد كانوا يواجهون التّغطرسَ بكلّ ما يملكون من شراسةٍ وبأس ولا يتوانون في الدّفاع عن حوضهم، كما يمقتون المحتال والمنافق، والرّاشي، لأنّهم صرحاء لا يدارون ولا يلتوون، يرفضون الرّضوخَ لأوامر الظّالم مهما كانت مكانتُهُ.

وهم مع ذلك اجتماعيون ذو مرحٍ تعلُو وُجوههم البشاشة، يحتفلون بالوافدين عليهم، ويأنسون بهم، مؤثّرين بأخلاقهم وعاداتهم فيمن يقدم عليهم فتتملّكه، يتذوّقون الفنّ الهادئ، ويتقنون العزف على العود والقيتار.

---

(1) ويمكن لمن يريد مزيد اطلاع على مراحل دلس التاريخية الاطلاع على كتب التاريخ المتخصصة وإنما أردنا في كتابنا هذا الاختصار في الجانب التّاريخي لأنّه ليس من اهتمامنا فيه. أنظر مثلا: ماسكرلو؛ دلس المدينة الأثرية الجزائرية، مجلة تاريخ وحضارة المغرب، الشّركة الوطنية للنّشر والتوزيع، الجزائر، العدد: 13، جانفي، سنة: 1976م.

وهـم مأسـورون بـالجمال الـذي يحـيط بهـم بـرًّا وبحـرًا: خـضرة وزرقـة، وبـالعيون الكثـيرة التـي تجـري داخـل المدينـة وخارجهـا في كـلّ حـيّ وبـستان بـإذن اللــه تعـالى، فـترى أثـره في بيـوتهم نظامًـا ونظافـة وترتيبًـا، وفي حـدائقهم وبـساتينهم عطـرًا وبهـاءً وحـسنًا، وفي لباسـهم اصـطفاءً وتجمّـلاً، وفي اختيـارهم للألـوان الهادئـة غـير الـصارخة، وغيرهـا من الخصائص التي تدلّ على الدّقة في التّنظيم والرّقة في الإحساس والذّوق في الاصطفاء.

كـما عـرف عـنهم احـترافهم للتّجـارة والفلاحـة والملاحـة والـصّيد والتـي اسـتغنوا بهـا وبمـا حبـاهم اللــه تعـالى به من الرّزق في البرّ والبحر.

وسـكّان دلـس عبـارة عـن خلـيط مـن الأمـازيغ؛ سـكان الجزائـر الأصـليين، والعـرب، وبعـض الأسر مـن ذوي الأصـول التّركيـة التـي دخلـت المدينـة مـع العهـد الـتّركي، وبعـض الأسر الأندلـسية التـي نزحـت مـن الأندلس بعد إخراجها منها.

وأغلـبُ سـكانها ينتمـون إلى عـائلاتٍ معرَّبَـة أو عربيَّـة الأصـل، يـشكّلون في مجمـوعهم أُسرًا كبـيرة تتـداخل فيما بينهـا حتّـى تبـدو كأنّهـا أسرة واحـدة، فهـم أعـمام وأخـوال وأصـهار. تقاليـدهم تقاليـد عربيـة محـضة، وعـاداتهم أغلبها حسنة.

واللّغـة الـسّائدة هـي اللّغـة العربيـة، حيـث اسـتعرب البربـر مـنهم، قـال أحمـد توفيـق المـدني: "وأهـل دلّـس يمتـازون بـين البربـر باسـتعرابهم التّـام لدرجـة أنّهـم نـسوا البربريـة لغـةً وأخلاقًـا وعوائـد"[1]. ولم تكـن تـسمع غيرهـا، لكـن بعـد الاسـتقلال ومـع النّـزوح الرّيفـي سـكن المدينـة الكثـير مـن الأمـازيغ فبـدأت تنتـشر اللّغـة الأمازيغيـة جنبًـا إلى جنـب مـع اللّغـة العربيـة، بـل واختلطـت اللــهجة المحلّيـة مـع كثـير مـن لهجـات المـدن الجزائريـة الأخـرى فأصـبحت تـذهب شـيئا فـشيئا، ولـذا خصّـصنا مؤلّفًـا ذكرنـا فيـه مـصطلحات ولهجـة المدينـة خوفًـا مـن انـدثارها مـع كثرة الوارد عليها من غيرها والشّارد عنها منها.

تعاريف عامّة

نقدّم فيما يلي مجموعة من التّعاريف لمدينة دلّس جمعناها من بعض المعاجم وكتب التّاريخ والرحّالة، اخترناهـا لمـا فيها من التّنبيه على بعض خصائص المدينة وما اشتهر به أهلها في الآفاق والأمصار ممّا ذكرنا بعضًا منه في الفقرة السّابقة.

1. تعريف الأب لويس معلوف اليسوعي

قـال الأب لـويس معلـوف اليـسوعي صـاحب المنجـد في اللغـة والأدب والعلـوم عـن مدينـة دلـس منبّههـا

(1) **توفيق المدني:** كتاب الجزائر، دار الكتاب – البليدة – ط: الثانية سنة 1384 هـ/1963م، ص 203.

على ما تميّز به أهل المدينة من الذّوق الفنّي:

دَلليسْ: "dellys" مدينة على شاطئ الجزائر عرف أهلها سابقا بإجادة العزف على العود"[1].

2. تعريف ليون الإفريقي

وهو وصفٌ لمدينة دلس من القرن العاشر الهجري السادس عشر ميلادي:

قال الرّحالة حسن بن محمَد الوزّان الفاسي المعروف بلقب "ليون الإفريقي"[2] في كتابه المشهور "وصف إفريقيا" واصفًا مدينة دلس التي كانت تسمّى تدلس أو تادلس قديما ومنبّها على خصائص سكّان المدينة وأذواقهم وجمالياتهم، ومستواهم الحضاري، ومشيرًا في نفس السّياق إلى ما امتازوا به من الحرف والصّنائع وبعض الهوايات:

"تادلس (دلس) مدينة عتيقة بناها الأفارقة على بعد نحو تسعة وثلاثين (39) ميلا (عن الجزائر) من شاطئ البحر المتوسط، تحيط بها أسوار قديمة متينة، وجلّ سكانها صباغون لوجود عدد من العيون والجداول بها، وهؤلاء السكان ذوو بشاشةٍ ومرح، يحسنون تقريباً كلهم العزفَ على العود والقيتار، يملكونَ أراضيَ زراعية كثيرة تنتج القمحَ بوفرة، ويرتدون لباساً حَسَناً كلباس الحضريين الجزائريين[3] وقد تعوَّدُوا جميعاً اصطيادَ السَّمك بالشباك، فيحصلون على كمية وافرة منه لا تباع ولا تُشترى، وإنما يهدونه

---

(1) اليسوعي؛ لويس معلوف: المنجد في اللّغة والأدب والعلوم، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، الطّبعة: الأولى، سنة: 1960م، ج: 2 (تراجم الأعلام والمشاهير والبلدان)، ص: 104.

(2) ليون الافريقي (888- 957 هـ / 1483-1550م) الحسن بن محمد الوزان، أبو علي، الغرناطي أصلا، الفاسي دارا، والمعروف عند الإفرنج باسم ليون الافريقي **Leon L' Africain**: جغرافي، رحالة، مؤرّخٌ، أندلسي الأصل؛ ولد في غرناطة، وهاجر صغيرا مع أهله إلى فاس فأخذ العلم بجامع القرويين. انتدب أبوه لبعض السّفارات والوساطات السياسية، وسار على هديه في ذلك فانتدب لمثلها ولذا تيسرت له الرّحلة إلى أكثر بلدان إفريقية الشمالية والشرق الإسلامي. أسر وأهدي للبابا ليون العاشر، تعلّم الايطالية واللاتينية، وكان يحسن الاسبانية والعبرية. طلب منه البابا أن يترجم رحلته إلى الايطالية ففعل. عاد الوزان إلى بلاده حوالي سنة: 934هـ /1527 م. مات على أكثر الرّوايات مسلما في تونس نحو سنة: 1552م. ألّف كتاب وصف إفريقيا وهو جزء من كتابه في الجغرافية العامّة الذي ترجم إلى عدّة لغات، وله أيضًا "معجم طبّي" عربي لاتيني عبري، و"مختصر تاريخ الإسلام" ذكره في رحلته، و"تاريخ إفريقية" و"مجموع شعري" في الوعظ والزّهد. وله رسالة باللاتينية في "تراجم الأطباء والفلاسفة العرب". وصنّف كتابًا في "العقائد والفقه الإسلامي" أحال إليه في كتابه عن إفريقية، رسالة في "الأعياد الإسلامية" و"كتابا في النحو". وله أيضًا "معجم عربي إسباني". أنظر: الزّركلي؛ خير الدين: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، الطّبعة: الخامسة، أيار (مايو)، سنة: 1980م، ج: 2، ص: 217-218.

(3) أي: سكان العاصمة في تلك الفترة الزمنية.

لمن يرغب فيه، وتتبع دلس دائماً عاصمة الجزائر في كلّ شيء حكومة وإمارة"[1].

3. تعريف أحمد توفيق المدني [2]

دلس كما وصفها المؤرخ الجزائري الأستاذ توفيق المدني في "كتاب الجزائر" والذي أشار إلى بعدها الإسلامي الحضاري، وإلى أهمّيتها ونزاع الدّول على ملكها، وكذا مشاركاتها العلمية والفنّية.

"(مدينة دلس) إسلامية ذات مركز ممتاز، كانت في العصور الإسلامية ذات قيمة علمية وفنية واسعة، وكانت تابعةً لدولة بنّي حماد، وكانت محلّ نزاع بين الدولة الحفصية والزيانية، وأخضعتها إسبانيا مدّةً قصيرةً إلى أن أنقذَهَا الأتراك نهائيا وابتنوا حولها سوراً منيعاً واحتلها الجندُ الفرنسي أوّلاً سنة: 1837م ثمّ ارتحل عنها وأعاد احتلالها من جديد عام: 1844م، وأهل دلّس يمتازون بين البربر باستعرابهم التّام لدرجة أنّهم نسوا البربرية لغة وأخلاقًا وعوائد، وللمدينة مرسى صغير يحميه سدٌّ بحري طوله: 103مترًا، والمدينة نقيةٌ جميلةٌ طيّبةُ الهواء". انتهى[3].

4. تعريف الإدريسي في نزهة المشتاق

وقال محمد بن محمّد الإدريسي[4] في معرض وصفه لدلس مبيّنًا بعد المدينة الاقتصادي، واستغنائها، ومشيرًا إلى جمال دورها وبساتينها: "وهي على شرف متحصنة لها سور حصين، وديّارٌ منتزهاتٌ، وبها من رَخَصِ الفواكه والأسعار والمطاعم والمشارب ما ليس يوجد بغيرها مثله، وبها الغنم والبقر موجودة كثيرا

---

(1) الوزان؛ الحسن بن محمّد الفاسي المشهور بليون الإفريقي، وصف إفريقيا، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ، ط 2، 1983م، ج:2، ص: 24.

(2) المدني؛ أحمد توفيق، المؤرّخ والكاتب الجزائري، شغل كاتب عام جمعية العلماء في غياب الشيخ الإبراهيمي، وسفيرها في مصر، تولّى وزارة الثّقافة في أوّل حكومة جزائرية بعد الاستقلال، وسفيرا للدّولة في المشرق، توفي سنة: 1983م، ألّف مجموعة من الكتب منها: "كتاب الجزائر"، و"حياة كفاح"، و"تقويم المنصور" وغيرها، أنظر: مجموعة من المؤلفين، بإشراف: رابح خدوسي، موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، دار الحضارة، الجزائر، طبعة سنة: 2003م، ص: 69.

(3) توفيق المدني: كتاب الجزائر، نفس المرجع السّابق، ص 203.

(4)الادريسي (493 - 560 هـ / 1100 - 1165 م) محمّد بن محمّد بن عبد الله بن إدريس الإدريسي الحسني الطّالبي، أبو عبد الله: مؤرّخ، من أكابر العلماء بالجغرافية. من أدارسة المغرب الأقصى. ولد في سبتة ونشأ وتعلم بقرطبة. ورحل رحلة طويلة انتهى بها إلى صقلية، فنزل على صاحبها روجار الثاني Roger II، ووضع له كتابا سماه "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" أكمله سنة: 548 هـ ترجم إلى الفرنسية واللاتينية والانكليزية والألمانية. وله أيضا "الجامع لصفات أشتات النّبات" استفاد منه ابن البيطار، و"روض الأنس ونزهة النفس"، ويعرف "بالممالك والمسالك"، و"أنس المهج وروض الفرج". قال الصفدي: كان أديبا ظريفا شاعرا مغرى بعلم جغرافيا ويرجّح أنّ وفاته في سبتة سنة: 1100- 1165 م. انظر: الأعلام: ج: 7، ص: 24.

وتباع جُمْلَتُها بالأثمان اليسيرة، ويخرج من أرضها إلى كثير الآفاق[1].

وقد نقل مقديش؛ محمود بن سعيد رحمه الله تعالى كلام الإدريسي في كتابه: "نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار" مع تصرف يسير. ولذالم أشأ أن أنقله لما فيه من التكرار.

كما نقل الحميري[2] في "الروض المعطار في خبر الأقطار" نفس الكلام وزاد عليه؛ قال رحمه الله تعالى: "تدلس: مدينة كبيرة بحرية بين بجاية والجزائر وبينها وبين مرسى الدجاج أربعة وعشرون ميلاً وهي على شرف متحصنة لها سور حصين وآثار ومتنزهات، وبها من رخص الفواكه والأسعار والمطاعم والمشارب ما لا يوجد في غيرها، والبقر والغنم بها موجودة كثيرة رخيصة الأثمان، وبينها وبين بجاية في البر تسعون ميلاً، وكان يحيى بن إسحاق الميورقي دخلها دخلة منكرة وفعل فيها أفعالاً مشهورة بالتخريب وهتك الأستار"[3].

دلس مدينة تاريخية

دلس من المدن الجزائرية القديمة العريقة في التمدُّن، ذلك أنها سايرت جلّ الحضارات التي عرفها حوض البحر الأبيض المتوسّط نظرا لموقعها الاستراتيجي الهام الذي يتوسط شمال إفريقيا.

فدلس كانت قبل مجيء الفينيقيين وقبل ميلاد المسيح بحوالي 250 سنة، بل وجود إنسان ما قبل التّاريخ بها واقعٌ أثبته البحث الأثري حيث اكتشفت أدوات وأجزاء لأسلحة، وفخار في أكثر من موقع بالمدينة وضواحيها[4].

---

(1) الإدريسي؛ محمد بن محمد، المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق للأدريسي، حققه محمد حاج صادق، ديوان المطبوعات الجامعية (opu)، الجزائر، سنة: 1983م، ص: 115. وانظر: مقديش؛ محمود بن سعيد، "نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار"، تحقيق علي الزواري، محمّد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، الطبعة: الأولى، سنة: 1988م، بيروت، لبنان، ص: 92.

(2) محمد بن عبد المنعم الصنهاجي الحميري، يكنى أبا عبد الله ويعرف بابن عبد المنعم، من أهل سبتة الأستاذ الحافظ. أخذ عن أبي إسحاق الغافقي وأبي القاسم ابن المشاط ومات في ذي القعدة سنة 727. قال ابن الخطيب: كان صالحاً، كثير الحفظ، يستظهر صحاح الجوهري وكتاب سيبويه يسرده بلفظه، غالبة في الشطرنج بالغائب، مشاركاً في عدة فنون. انظر: العسقلاني؛ الحافظ شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: محمد عبد المعيد ضان، نشره: مجلس دائرة المعارف العثمانية، سنة: 1392هـ/ 1972م، صيدر اباد، الهند، ج: 5، ص: 282.

(3) الحميري؛ محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، المحقق: إحسان عباس، نشر: مؤسسة ناصر للثقافة - بيروت - طبع على مطابع دار السراج، طبعة: 2، سنة: 1980م، ص: 132.

(4) انظر: ماسكرلو؛ دلس المدينة الأثرية الجزائرية، مجلة تاريخ وحضارة المغرب، الشّركة الوطنية للنّشر والتوزيع، الجزائر، العدد: 13، جانفي، سنة: 1976م، ص: 7.

وكانت في عهد الفينيقيين مركزا تجاريًا معتبرا وهامًا، بحيث تأتيها البضائع من قلب إفريقيا إلى مينائها لتنقل بعدها إلى مناطق مختلفة حول البحر المتوسط، وكانت آنذاك تابعة للدّولة القرطاجنية.

- **أسماء مدينة دلس**

ولمدينة دلس عدّة أسماء منحتها لها حلقات التّاريخ البشري منها: أديما "Adyma" في العهد الرّوماني، وريسيكيريس "rusuccurrus" في عهد الفينيقيين، وتدلس أو تادلس في العهد العربي الإسلامي وإن كان ظاهر الاسم يوحي بأنّه أمازيغي، وأخيرًا سميّت دلّس، كما لقّبت المدينة بالجناح الأخضر لكونها عبارة عن رأس داخل البحر تغطيه الخضرة في وسط أزرق فكان كجناح طائر أخضر ممتدّ في السّماء الزّرقاء، ولقّبت أيضًا بالأندلس الصّغيرة لتشبّه سكّانها بسكان الأندلس في فنّهم وذوقهم ورقيّهم، ولنزوح الأندلسيين إلى المدينة بعد هروبهم من محرقة الصّليبين الإسبان.

- **مكانة مدينة دلس بين المدن الجزائرية**

ولقد تعاقب على مدينة دلس الكثير من القادة والملوك والزّعماء والأشراف والعلماء والفنّانين والسياسيين المحنّكين والأدباء البارعين، كما كان لها تاريخٌ حافلٌ باحتكاكاتها مع الدّول والممالك التي تداولت على حكم المدينة من الفينيقيين والرّومان والبيزنطيين والوندال والنورمونديين والعرب المسلمين والإسبان والفرنسيين بتياراتهم الدّينية والسّياسية، وبأعراقهم وأجناسهم المختلفة، كما لعبت المدينة أدواراً لا يُستهان بها في تاريخ الفتوحات الإسلامية، فكانت رمزاً حضارياً يمكنُ أن تفخرَ به على المدن الجزائرية الأخرى. ولقد اشتهر أبناؤها بالصّمود والثّبات في حراسة أحواز مدينتهم، وبسعة صدورهم، وقناعتهم، وذكائهم، وفطنتهم وسماحة معاملاتهم، وبعدهم عن الغش والمراوغة في البيع والشّراء وغيرها من المعاملات.

* * *

الفصل الأوّل

دلّس؛

الموقع والجغرافيا والمناخ والتّاريخ

المبحث الأوّل: الموقع والجغرافيا والمناخ

المبحث الثّاني: دلّس....التَّاريخ

المبحث الأوّل: الموقع والجغرافيا والمناخ

المطلب الأوّل: موقع المدينة الجغرافي

المطلب الثّاني: موقع المدينة الفلكي

المطلب الثّالث: الموقع الإداري الحديث وتقسيم الدّائره

المطلب الرّابع: مناخ دلّس ومميّزاته

المطلب الخامس: تضاريس دلّس

المطلب السّادس: التّقويم السّنوي لأهل المدينة



المطلب الأوّل

موقع المدينة الجغرافي

تقعُ مدينة دَلَّس في المنطقة السّاحلية الشّمالية لولاية بومرداس وتبعد عن العاصمة بحوالي 105كلم من الجهة الشّرقية، حيث تحُدُّها من النّاحية الشّرقية بلدية تيقزيرت الأثرية والتّاريخية مع جارتها تاقصبت وتفصل بينهما غابة ميزْرَانة، ومن الجهة الجنوبية سلاسل جبلية وتلال جميلة خصبة وسخية العطاء، ومن الجهة الغربية جبل بوبرَّاكْ ووادي سَبْعُ: (ساباو) (نَسَّة) وجبل بوبراك يبلغ ارتفاعه: 590م، ومن النّاحية الجنوبية الشّرقية غابة بوعربي وجبل لاصُوَّاف الذي يبلغ ارتفاعه: 371م، ومن الشمال البحر الأبيض المتوسط. ويبلغ ارتفاعها على مستوى البحر بين 70 و80م.

ويحدُّ دلّس شرقًا وغربًا مصبّ واديان؛ فمن النّاحية الغربية مصبُّ واد ساباو (سبع)، ومن النّاحية الشّرقية واد أوباي (واد الباي؟)، ونلاحظ أنّ واد ساباو أغزرُ وأطول من واد أوباي، بحيث أنَّ ينابيعَهُ تنحدِرُ من جبال جرجرة وقد كان هذان الواديين لا يجفَّان على طول السّنة إلاّ في سنوات الجفاف، وكان لكلٍّ منهما شاطئاً رمليًا أبيضَ نظيفًا.

[موقع دلس الجغرافي في الساحل الجزائري]

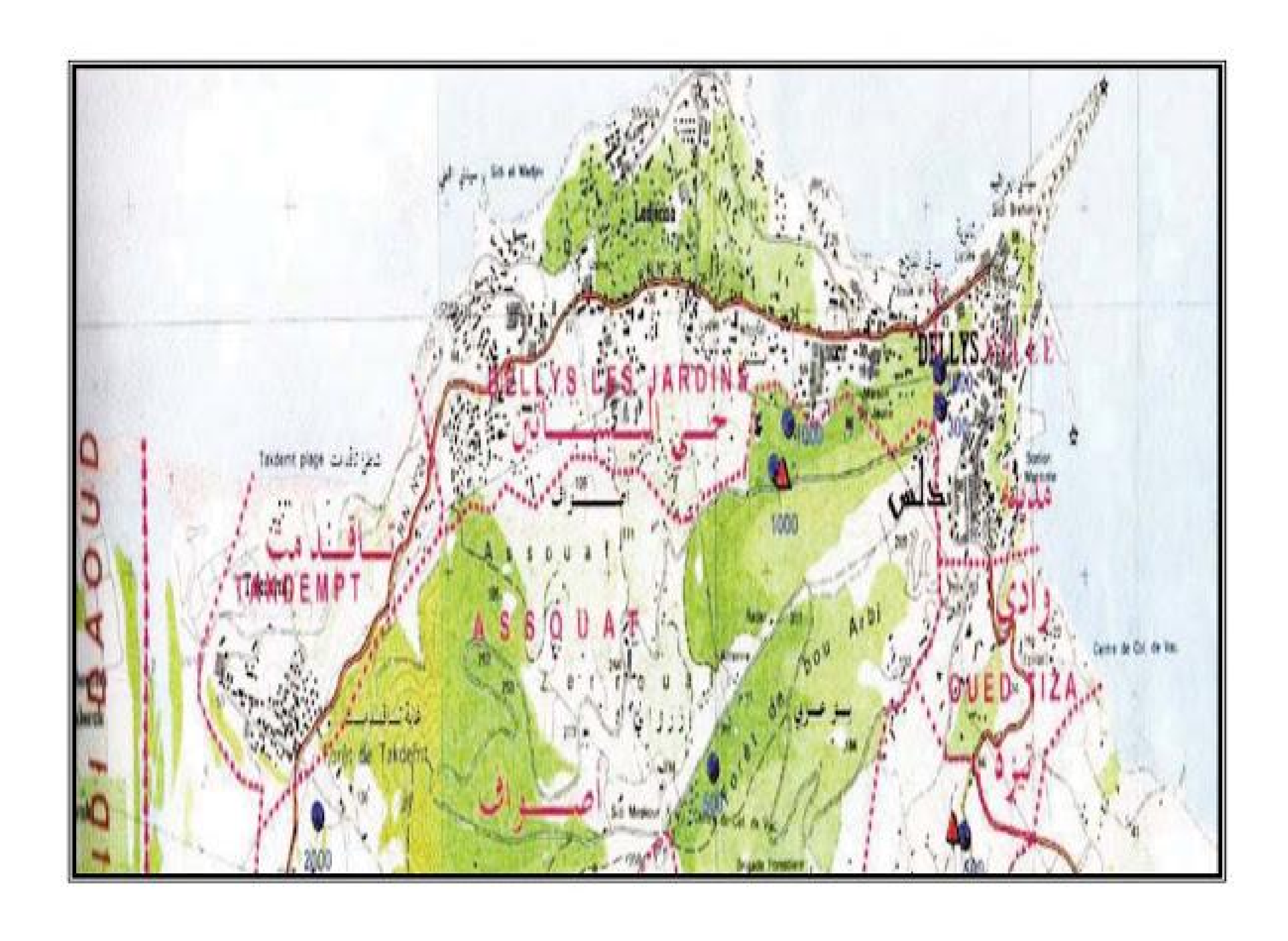




المطلب الثاني

موقع المدينة الفلكي

توجد مدينة دلس بين خطي عرض: 36,91 درجة، وبين خطي طول: 3,88 درجة.





المطلب الثّالث

الموقع الإداري الحديث وتقسيم الدّائرة

تقع دائرة دلس بولاية بومرداس، وهي آخر دائرة أو بلدية في الولاية من النّاحية الشّرقية. وتنقسم الدّائرة إلى ثلاث بلديات: وهي كما يلي:

1. بلدية أعْفيرْ من الجنوب الشّرقي. وهي الحدّ الفاصل مع بلدية تيقزيرت التّابعة لولاية تيزي وزو.
2. بلدية ابن شهود أو بن شود من الجنوب الغربي منها.
3. وبلدية دلس.

وتبعد بلدية دلس عن بلدية تيقزيرت بـ: 27 كلم من النّاحية الشّرقية، وتبعد عن غابة ميزرانة بحوالي 13كلم شرقا، وتبعد عن بلدية رأس جناد (أو جنات) بـ: 20 كلم، وتبعد عن برج أم نايل بـ: 35 كلم، وعن مقرّ ولاية تيزي وزو بـ: 45 كلم، وتبعد عن بلدية النّاصرية بـ: 25 كلم، وتبعد عن بلدية بغلية بـ: 18 كلم، وتبعد عن بلدية سيدي داود بـ: 14 كلم.

* * *





يمتازُ مناخُ المنطقة بالرّطوبة والاعتدال فتتراوح درجة الحرارة فيها في الصّيف ما بين 20 درجة و30 درجة، وأمّا في فصل الشّتاء فمعدلها (أي: درجة الحرارة) يتراوح ما بين 16 إلى 12درجة، ويزيد وينقص بنسبة معقولة ومريحة للسّكان وللزّوار أيضاً، سواء أكان صيفاً أو شتاءً، فدلّس كشبه جزيرة يلطِّفُ جوَّها البحرُ، ويعطيها أنساماً منعشة مريحة تبعث في الجسم حيوية، وفي الرّوح مرحاً، وفي الحديث أُنسًا.

وبالنّسبة للأمطار المتساقطة سنوياً فيتراوح معدّلها بين 200 إلى 1000مم.

* * *



المطلب الخامس

تضاريس دلس

1. الجبال
2. بساتينها
3. جبل لاصوّاف والبساتين أحسن واجهة لدلّس
4. المرسى
5. الرّؤوس البحرية



الجبال

لها جبل واحد يحضنُهَا من الجهة الجنوبية يبلغ ارتفاعه 371 متر، ويسمى جبل لاصواف تُتوِّجُهُ غابة كثيفة جميلة تسمى بوعربي تزوِّدُ المنطقة بالهواء النقي المنعش، وفي حجر الجبل بساتين ومنازل تشرف على البحر الأزرق الخلاّب.

1. بساتينها

أما بساتينها فهي أرضٌ خصبة في كلّ ما تنتجه من خُضرٍ وفواكه أو حبوب، وكانت معروفة ومشهورة بإنتاجها للبواكر لما فيها من فلاحين مهرة، حيث كانوا ينتجون جلّ أنواع الخضر في غير فصولها الطّبيعية، هذا كان قبل وجود البيوت البلاستيكية حيث كانوا يعتمدون في ذلك على الدّيس وأوراق القصب وكثرة الأسمدة.

بعض مناظر البساتين المسمّات الأجنّة (لَجَنّة)



[صورة عن البساتين وتظهر منارة بن غوث]



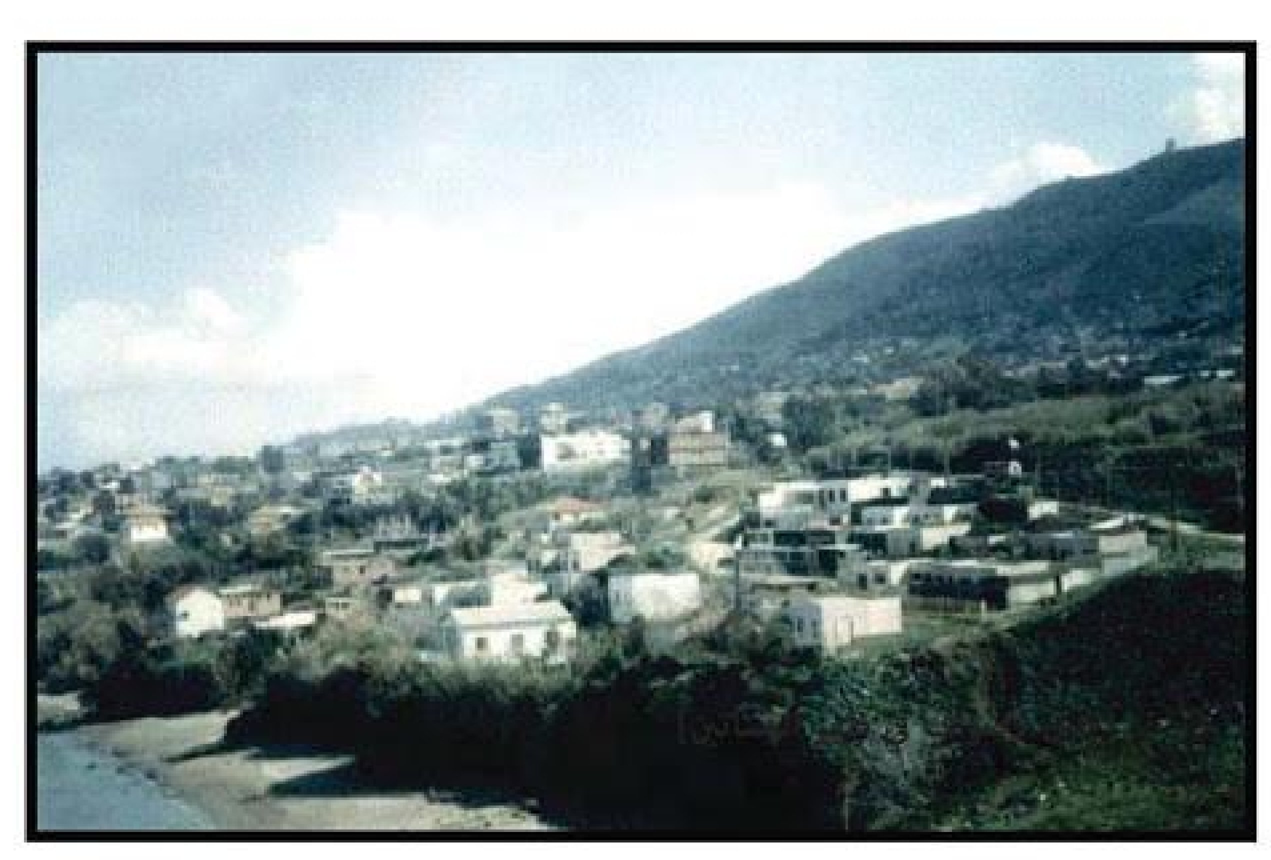
[صورة عن البساتين ويظهر شاطئ الرّملة والبساتين المتكئة على جبل لاصواف]

3- جبل لاصواف، والبساتين أحسن واجهة شمالية لدلس

يقع جبل لاصواف غرب وشمال مدينة دلس، سهله الشّمالي يسمّى البساتين أو الأجنّة أي: الجِنَان لما فيه من بساتين الخضر والفواكه المختلفة، ويعتبر أجمل جبل في المنطقة لكثرة غلاّت أشجاره من لوزٍ وخروبٍ وتينٍ ومشمشٍ وإجّاصٍ وخوخٍ ورُمّانٍ وعنّابٍ وموزٍ وتفاحٍ وعنبٍ وبرتقالٍ وبلاكمينٍ ومصاعٍ وليمونٍ وسفرجلٍ وبرقوقٍ، وهو كمثابة الرّئة للمدينة لأنّه يلتصق بغابة كثيفة الأشجار من الجهة الجنوبية الشّرقية وتسمّى هذه الغابة بغابة "بوعربي"، حيث تكثر فيها أشجار الصنّوبر، ومن النّاحية الغربية بغابة أخرى هي غابة غار الضّبع مكوّنة من أشجار العرعار وبوحداد وذرو وتوزال والزّيتون الحشّادي حيث تمتدُّ إلى رأس كهف أُمري المُطلُّ على واد ساباو (سبع). والمشرف أيضا على جبل (بوبراك).

وطول هذه البساتين من باب سور المدينة الشّرقي إلى المطل أربع كيلومترات بالطّول، وثمان مائة متر (800م) عرض في المعدّل تقريبا.

وكان أصحاب هذه البساتين مشهورين في إنتاج البواكر المختلفة تسوّقُ إلى المناطق المجاورة ومنها ما ينقل إلى العاصمة.



4-المرسى

تشكّل الهضبة المرتمية في البحر من النّاحية الشّرقية مخبأ طبيعيا اختاره أهالي المدينة كمرسى محمي من الرّياح الغربية. وبذلك شكّل ميناء طبيعيا لم تسهم يد الإنسان فيه.

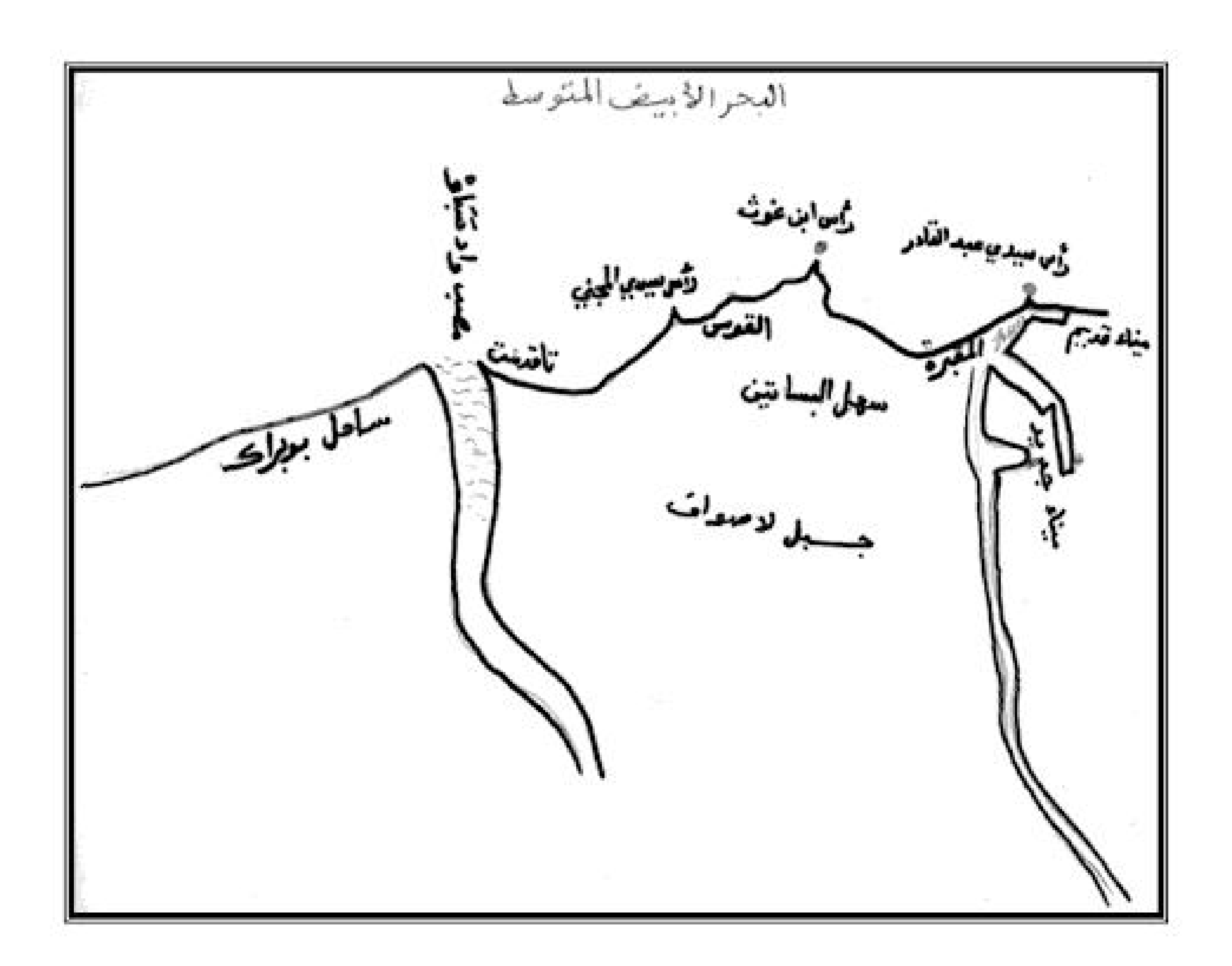
5- الرؤوس البحرية:

لمدينة دلس ثلاثة رؤوس بحرية كانت في الماضي إستراتيجية وهامّة جدًّا بالنّسبة لمراقبة شاطئها الشّرقي والغربي وما بينهما:

(1) رأس سيدي عبد القادر، ويسمَّى أيضاً دماغ سيدي عبد القادر، أو يسمَّى بالميناء القديم، أو يسمى رأسَ الجبَّانـة أو رأس الطَّرف.

(2) رأس برج الفنار، (أو فنار ابن غوث).

(3) دماغ سيدي المجني، على الساحل الغربي بكامله.



[خريطة تمثل الرؤوس البحرية بساحلها]



[منارة سيدي عبد القادر القديمة]



[نفق القطار يمر تحت رأس الطرف وبالضبط يشق الصخرة العظيمة التي يقبع عليها منارة سيدي عبد القادر]

رأس الطرف

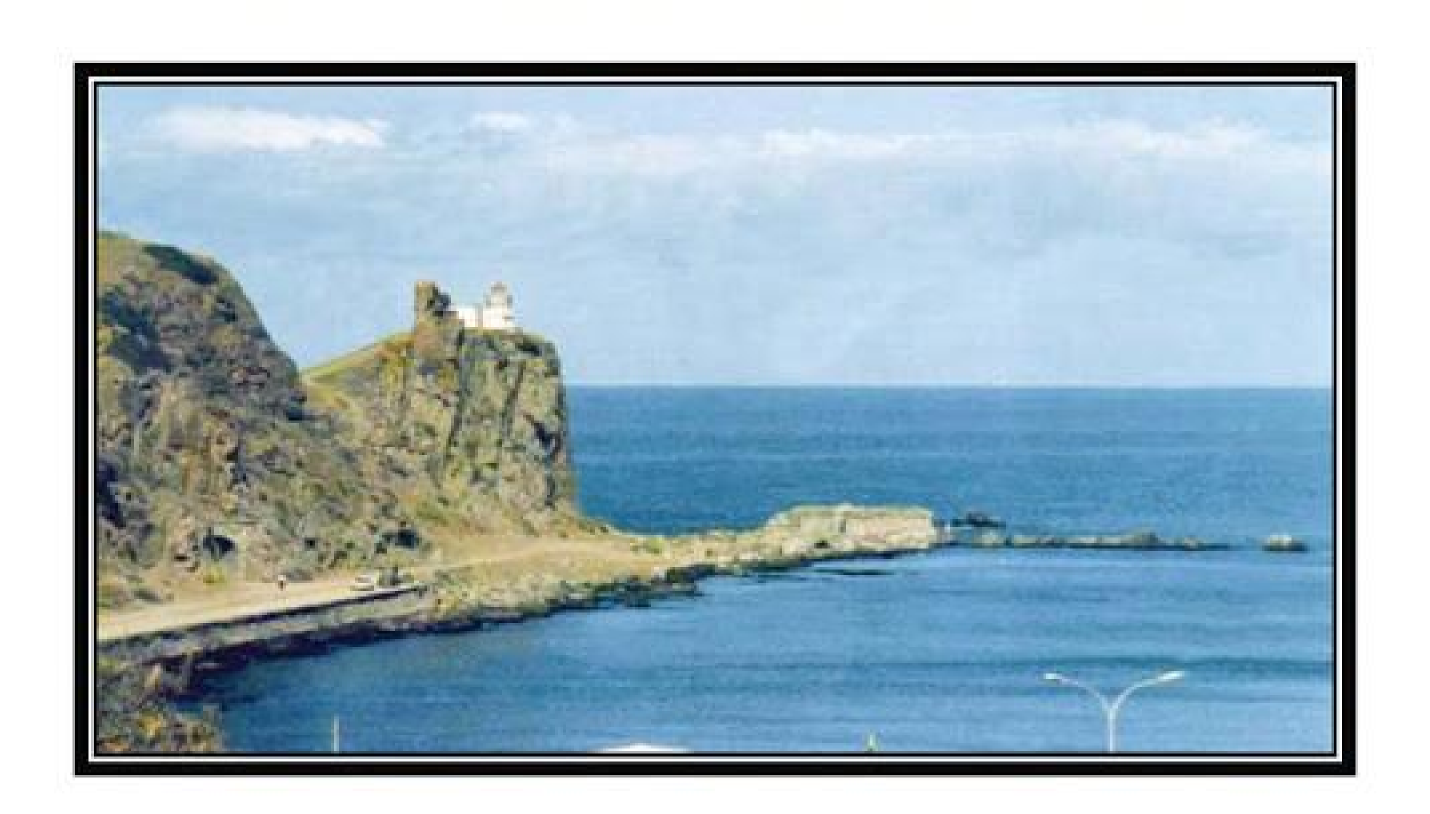


شعر شعبي عن راس الطّرف (الجبّانة):

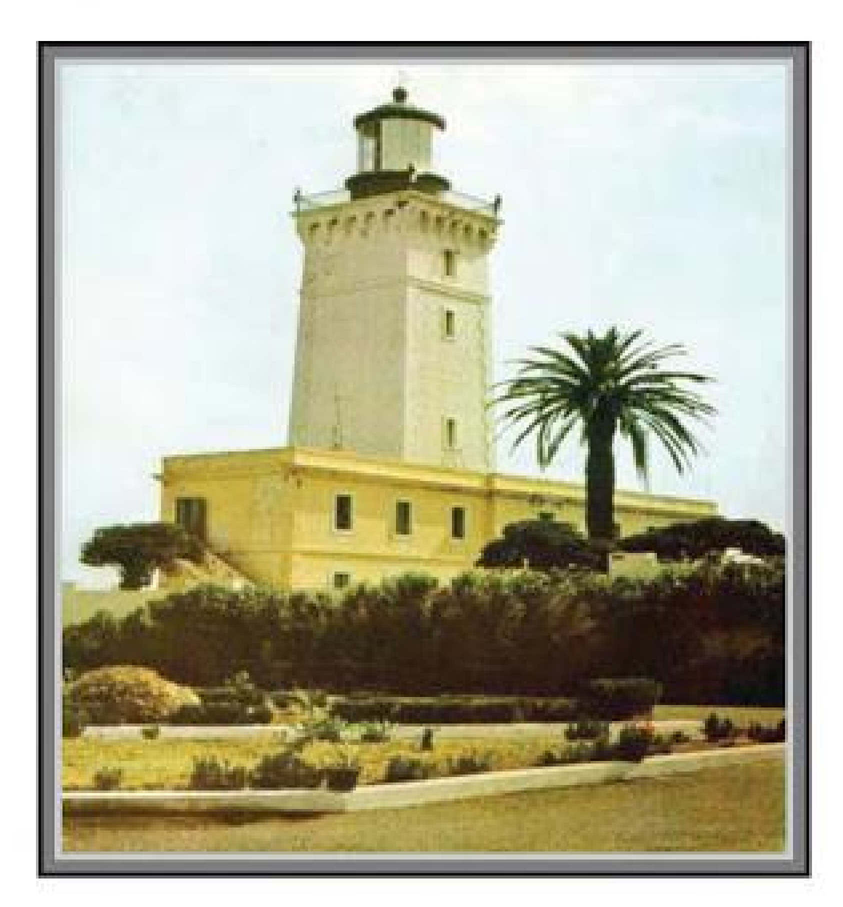
جَـــزْتْ عَـــلَى الجَبَّانَـــة ۞ ولْقِيـــتْهُمْ رْقُـــودْ

اَلعْطَـــشْ وَالهَانَـــة ۞ وَالحْنَـــاشْ اَتْـــسُودْ

يـــا حْنِينِـــي يـــا بـــابا ۞ هَـــاكْ ذَاكْ اَنْعُـــودْ



[من بقايا الميناء القديم شرق منارة سيدي عبد القادر في طرف رأس الطرف.]



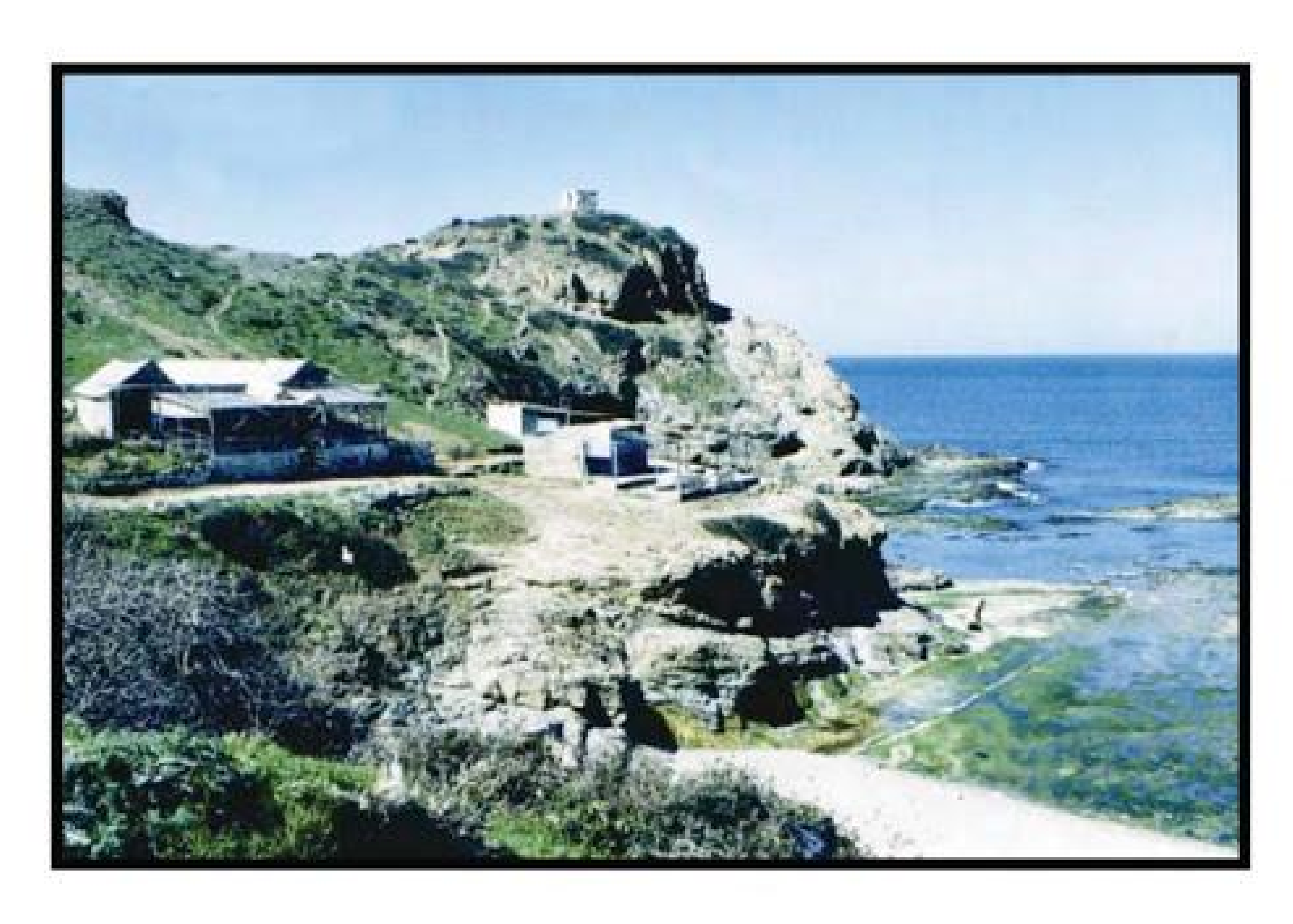
[هذه صورة برج الفنار «فنار ابن غوث» من داخل حديقته الغناء المتنوعة الأزهار والأثمار والأشجار، وحتى شجرة القهوة كانت مغروسة هنا]



[هذا جزء من البساتين يتوسطها رأس برج الفنار (موقارف) أخذت صورة هذا المنظر من الجهة الجنوبية من جبل لاصواف]



[القوس بحي البساتين دلس غرب المدينة، وهو ميناء طبيعي لصيد الأسماك من الجهة الشرقية.]



[هذا رأس سيدي المجني، أو دماغ العلالي،
ويظهر في أعلى قمته سيدي المجني الذي كان يعتبر برج مراقبة هام.]



[رأس سيدي المجني الذي كان يحلو لشباب المدينة تمرين الخيل
واللعب به في المناسبات على شاطئه الرملي الجميل،
وخاصة في آخر ساعة من النهار مع غروب الشمس]





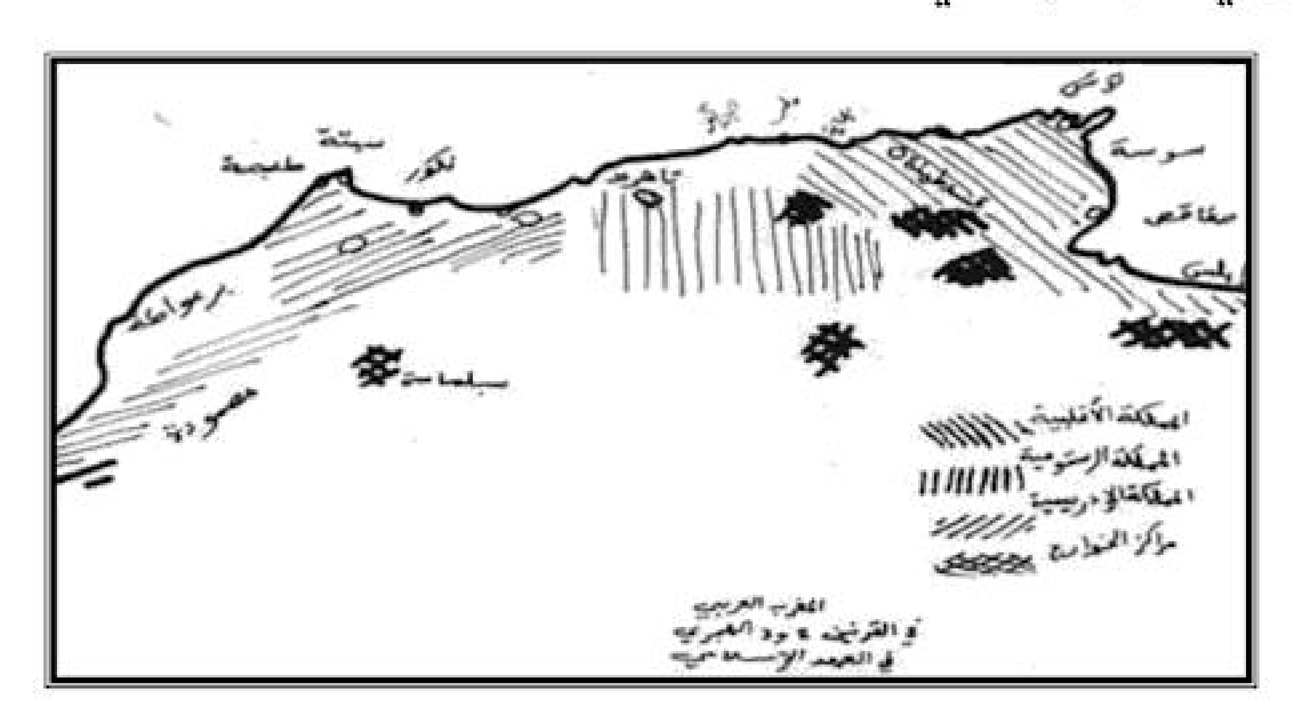
المطلب الثّالث

دلس بعد الإسلام

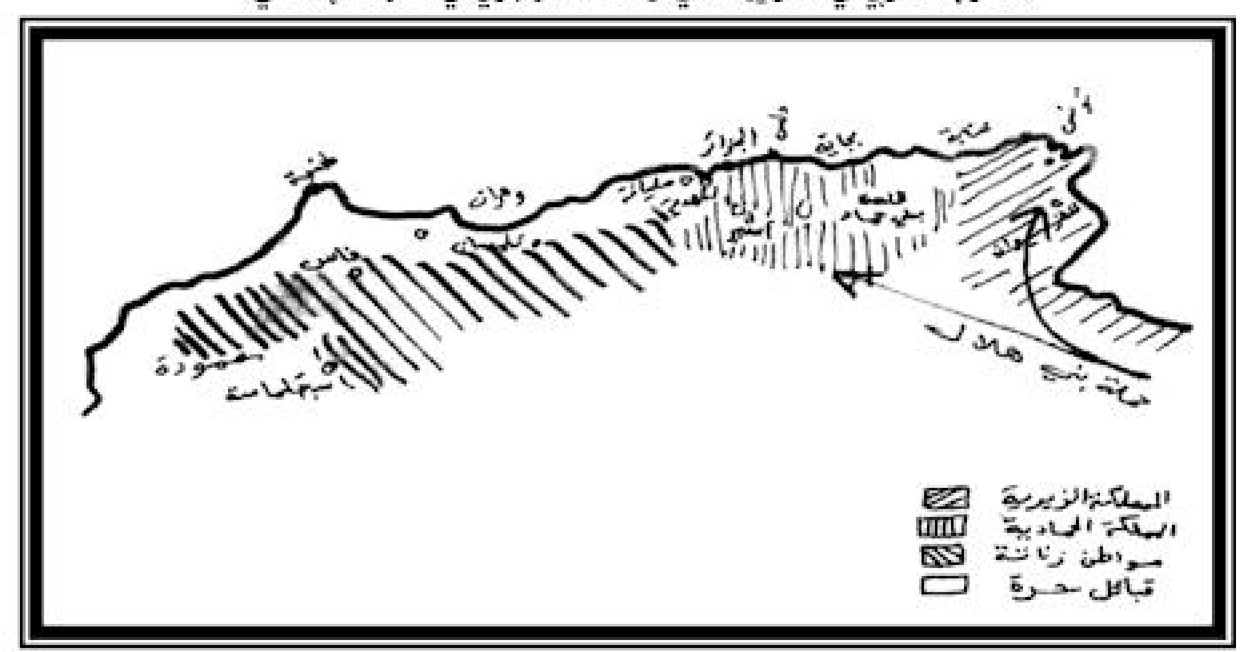
1. دلّس في العهد الإسلامي «خرائط فقط»
2. دلّس الأندلسية
3. دلّس والاحتلال الإسباني
4. دلّس في عهد الأتراك
5. دلّس في العهد الفرنسي

- السّكان والآباء البيض في عهد الاحتلال الفرنسي

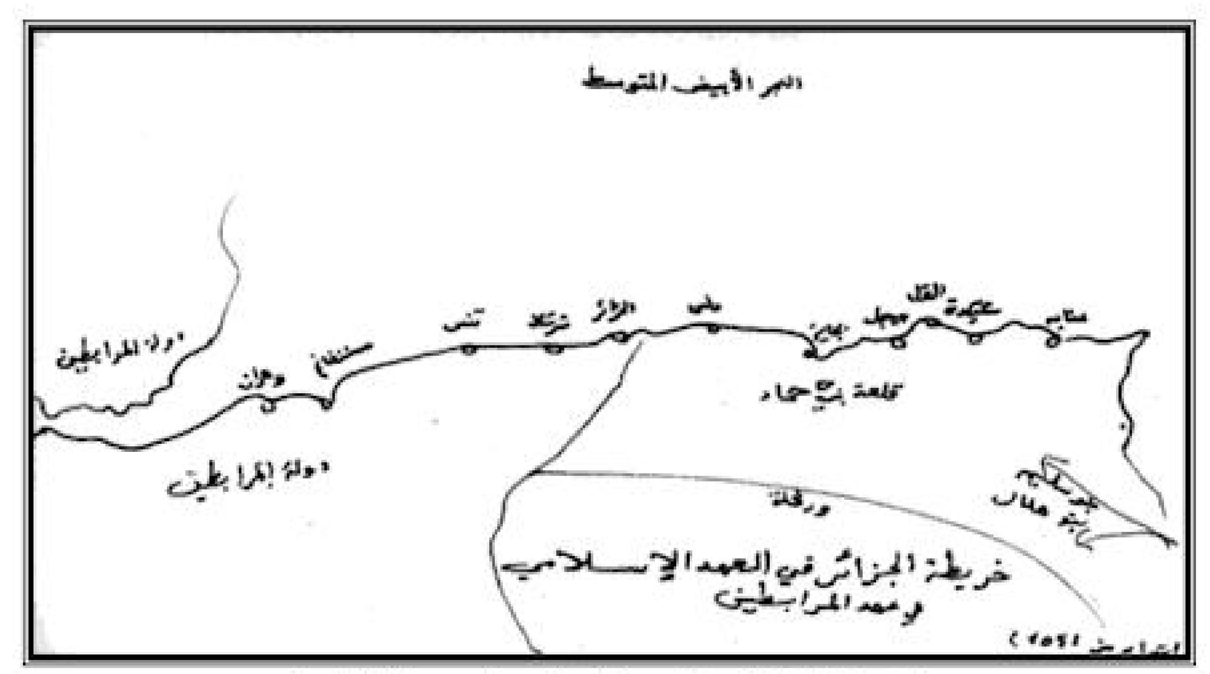
1 - دلس في العهد الإسلامي



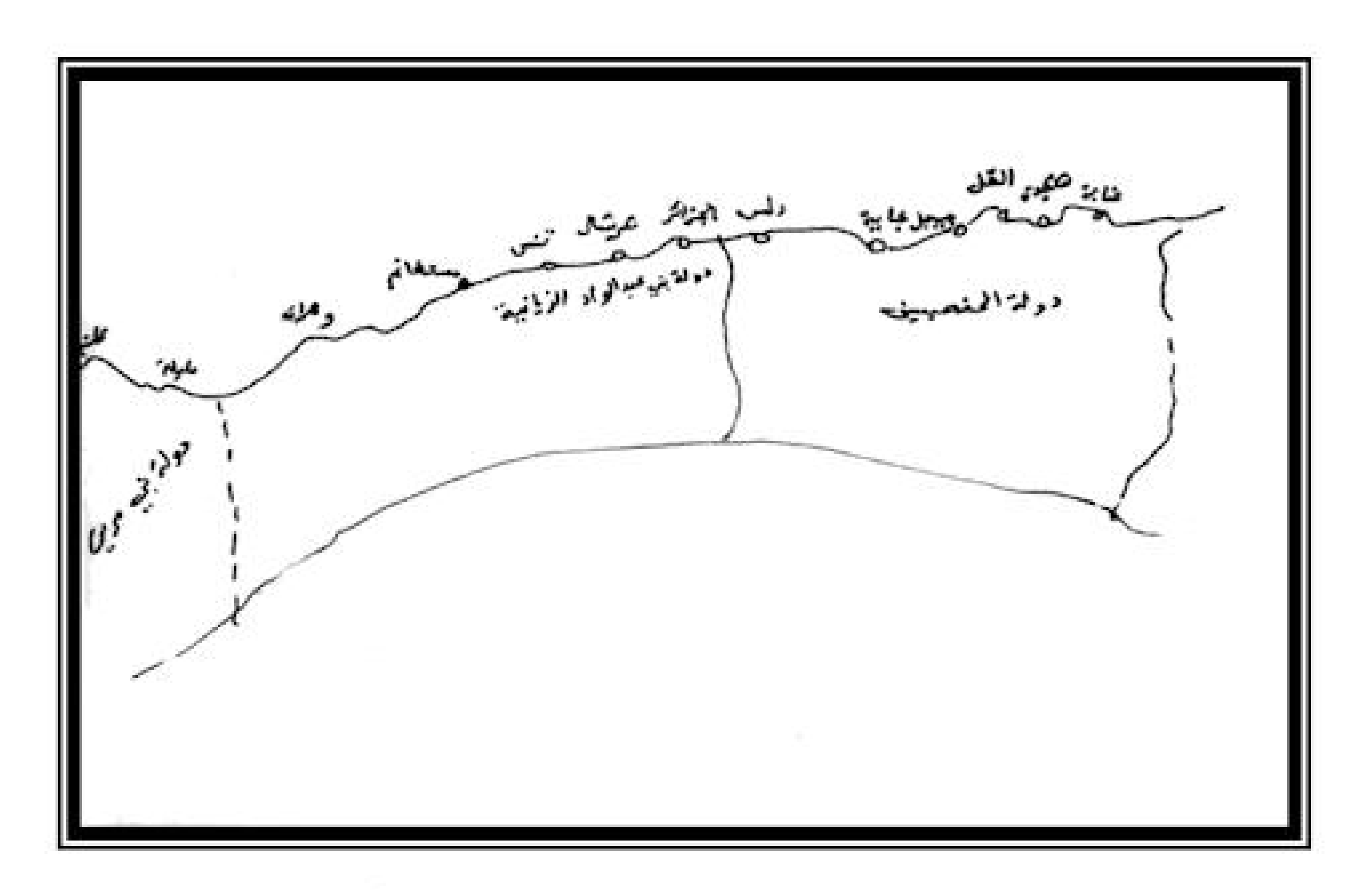
[المغرب العربي في القرنين الثّاني والثّالث الهجري في العهد الإسلامي]



[خريطة القرن الرابع إلى أواسط السادس الهجري في العهد الإسلامي]



[خريطة الجزائر في العهد الإسلامي في عهد المرابطين]



[خريطة الجزائر في العهد الإسلامي في نهاية عهد الموحّدين]

2 . دلس الأندلسية

اختارها الأندلسيون النّازحون من إسبانيا مقرًّا لسكناهم لما رأوا فيها من تشابه وتقارب في الطّقس والعادات والتّقاليد والثّقافة والوعي الاجتماعي، وطاب لهم المقام والعيش والمصاهرة فنشروا فيها علومَهم وحرفَهم وفنونهم، فازدادت تقدما وازدهاراً ورقيا وخاصة في ميدان البستنة والبناء والطبخ والنّسيج حتى أصبحت في هذا العهد تُسمّى دلّس الأندلسية أو الأندلس الصّغيرة، كما أطلقوا عليها اسم الجناح الأخضر.

وبالمناسبة أخصّ بالذّكر اسم معزّ الدّولة بن المعتصم بن صمادح الذي كان واليًا على ألمرية واضطرّ أن يرتحل من الأندلس بأهله وماله إلى الجزائر بعد أن استولى عليها المرابطون سنة: 484هـ / 1091م، فحطّ رحاله عند الملك الحمادي المنصور ببجاية فرحّب به وأكرمه إكرامًا عظيمًا حتىّ إنّه أقطعه مدينة دلّس الجميلة وأحوازها، إذ تربّع على أريكة الحُكم فيها وأصبحت بفضل حُبّه لها وإعجابه بها ذات دورٍ وأبراجٍ ومنتزهات بديعة تُضاهي بعضَ مُدن الأندلس الصّغيرة، قال عبد الرحمن الجيلالي: "فأصبحت هذه المدينة بعد ذلك بفضل عمل هذه الجالية الأندلسية مركزًا ثريًّا"[1]، إذ ازدهرت في عهده الزّراعة والتّجارة والصّناعة والثّقافة، وقد توثّقت حبال المودّة والأُلفة والمحبّة بين المهاجرين من الأندلس وأهل هذه البلدة

(1) انظر: عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، مرجع سابق، ج: 1، ص: 248.

فأخـذوا مـنهم ثقـافتَهُم وطبـاعَهم وبعـض عـاداتهم وتقاليـدهم، واسـتأنس النّـاسُ بهـم وذاع صـيتهم بـين الأهـالي والمـدن المجـاورة لهـم، فجـذبت إليهـا التّجـارَ وأمـست مركـزاً تجاريّـاً غنيـا بالـسِّلع والبـضائع المختلفـة ومقـصدًا لهـواة الثّقافـة والفنـون والـشّعر والعلـوم المختلفـة، وطـاب العـيشُ فيهـا ولـذَّ، وعـمّ الرّخـاءُ، وهكـذا أصـبحت مدينـة مركزية مسوّقة لأنواع السّلع المختلفة نظرا لكثرة ورخص السّلع فيها وتوفرها.

وفي هـذا يقـول المـؤرخ الإدريـسي[1]:" وهـي عـلى شرفٍ متحـصِّنة لهـا سـورٌ حـصين وديـارٌ متنزهـات، بهـا مـن رخـص الفواكـه والأسـعار والمطـاعم والمـشارب مـا لـيس يوجـد بغيرهـا مثلـه، وبهـا الغـنم والبقـر موجـودة كثـيرا وتبـاع حملتها بالأثمان اليسيرة ويخرج من أرضها إلى كثير الآفاق".

فـلا تكـادُ تـرى بـستاناً مـن بـساتينها إلا ووقـع أمامـك نـوعٌ مـن الـورود أو الأزهـار والرّيـاحين أو الأشـجار المثمـرة الطيّبـة، كـما شُـيِّدت فيهـا مـساجدُ للـصّلاة وتـدريس القـرآن الكـريم، وسـأذكر عـددها بالتّفـصيل في صـفحة خاصّة إن شاء اللـه تعالى.

كـما شـاعت فيهـا أغـاني الموشّـحات الأندلـسية في الأوسـاط الـشّعبية وخاصّـة في أيّـام الرّبيـع والـصّيف، حيـث تكـثُرُ العـصافير والأعـراس والأفـراح والزّهـور، وتنتـشر روائـحُ الياسـمين العبقـة، وتنطلـق ألحـانُ البلابـل والـشّحارير، وتجـيء الـسنونو مـن الحجـاز، وتقـام الـسّهرات اللّيليـة بـالعزف عـلى آلـة العـود والكـمان وأنّـات النّـاي تهامـسها مـن بعيـد، وقـد فـشا هـذا الأمـرُ في النّـاس وعُـرف بـه أهـل البلـدة حتـى جعلهـا الأب معلـوف اليـسوعي مـن أهـمّ مـا عـرف بـه أهلهـا، قـال في منجده اللّغوي في ترجمته لمدينة دلس: "مدينة على شاطئ الجزائر عرف أهلها سابقا بإجادة العزف على العود"[1].

كــما عــرف أهلهــا بــتعلُّقهم باللّغــة العربيــة وتمــسُّكهم بالكتــاب والــسنّة وحــبّهم لــسماع الــسّيرة النّبويــة الــشّريفة وتــشوّقهم لرؤيــة وســماع العلــماء وكــثرة أســئلتهم للمعرفــة، ويحبُّــون القــصص والرّوايــات التّاريخيــة، وحُبُّهم البـالغ للاطّـلاع عـلى مـا يجـري حـولهم عـلى هـذه الأرض، ويتـابعون الأحـداثَ بـاهتمام كبـير، وهـذا يـدلّ عـلى أنهم متفتّحونَ، ولذا انصهروا سريعاً مع الأُسَرِ الأندلسية التي آووها ونصروها.

وكـما أنهـم يحبُّـون النُّكتـة والتنـدُّر، ويحترمـون كـلَّ عـابر سـبيل أو مهـاجر إلى بلـدتهم، فهـم إلى الاطّـلاع عـلى أسرار الآخرين متشوّفون، وهم أيضا مشهورون باختراع الألقاب والتنادي بها.

---

(1) المغرب العربي من كتاب: نزهة المشتاق للإدريسي. حققه ونقله: محمد حاج صادق – ديوان المطبوعات الجامعية (595) – سنة 1983، الجزائر. ص: 155.

(1) لويس معلوف، المنجد في اللغة والأدب والعلوم بيروت، لبنان الطبعة الأولى، سنة 1960ص: 154 وانظر: عبـد الـرحمن الجـيلالي، تـاريخ الجزائر العام ج2 ص 235.

3. دلس والاحتلال الإسباني

سقطت غرناطة في يدِ الإسبان، وأعطى هذا السّقوط لهم دافعًا قويًا إلى مغامرة أخرى في ما وراء البحار، فكان الأقرب منهم أراضي شمال إفريقيا لردّ الثأر، أو لاسترجاع ثرواتهم التي هربت من بلادهم حين نزح الأندلسيون إلى المغرب العربي، وبالفعل انطلقت سنة: 910 هجري الموافق لسنة: 1504م أوّلُ الهجمات على شمال إفريقيا، فهوجم المرسى الكبير بمنطقة وهران فبجاية، وفرضت على أهالي دلس ضريبة مالية وذلك بدفع جزية في كلّ سنة مع التّخلي عن نشاطها الجهادي في حوض البحر المتوسط، فقبل أهلُها ذلك الشّرط الإسباني رغم أنّ أكبر قوة بحرية كانت تتمركز في هذه المنطقة أي: من دلس إلى بجاية وجيجل نظرا لموقعها الإستراتيجي وسواحلها الصّخرية.

وقد تواصلت الحملات الصّليبية الإسبانية على مدن الجزائر السّاحلية من سنة: 1510م إلى سنة: 1512م، وكان أهمّ سبب معلنٍ لهذه الحملات هو متابعة المسلمين النّاجين من الأندلس، ومن أهمّ قادة هذه الحملة الصليبية "ألكونت ديلافري[1]".

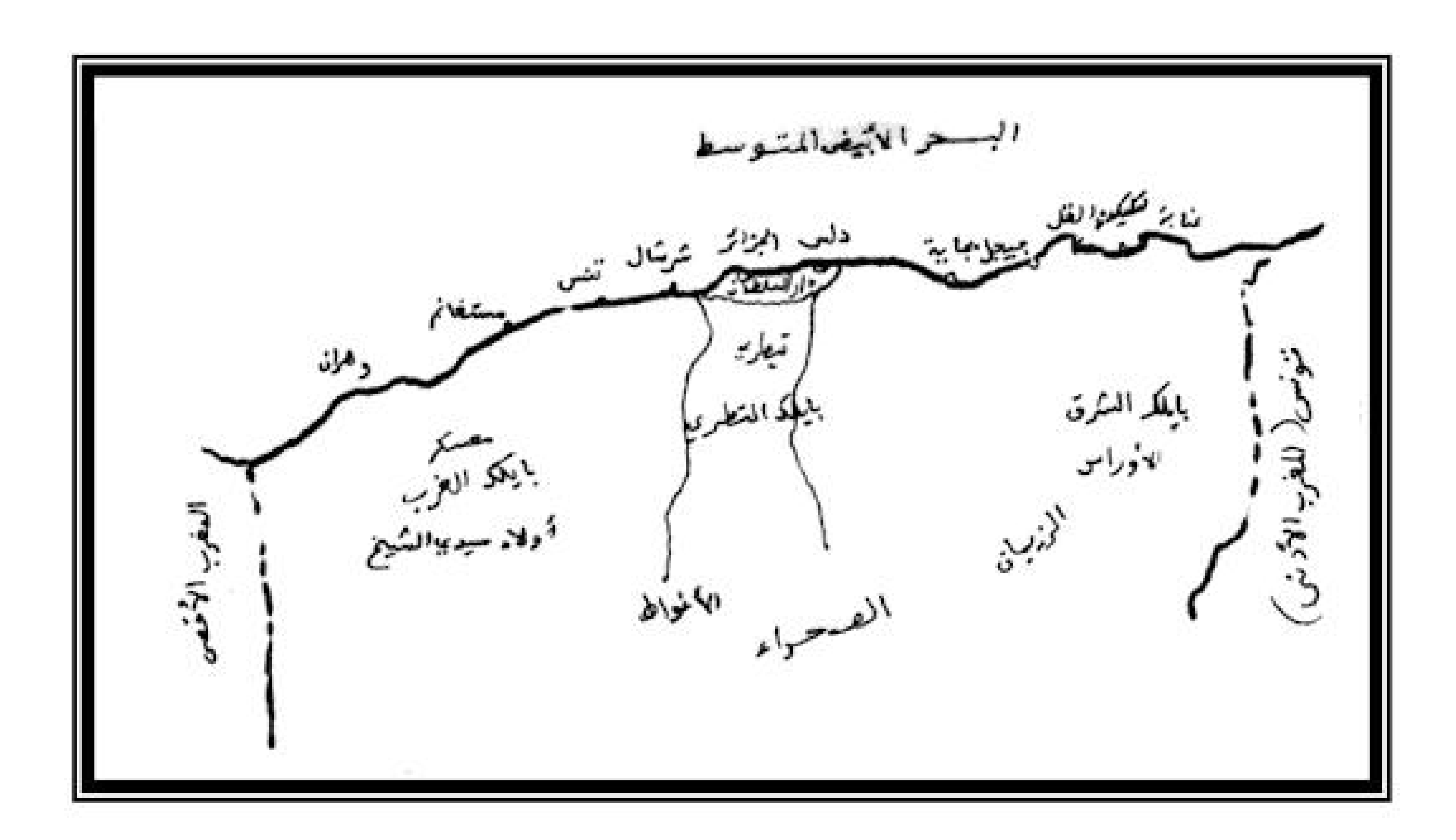
4. دلس في عهد الأتراك

لما استقرّ الحكم والأمر لعروج شرع في تنظيم حكمه وتوسيع سلطانه وضبط نفوذه على مناطق الوطن الجزائري، فبدأ توسيعه بمتيجة فاستولى على مدينة المنيعة والمدية ومليانة ثم نصب على مناطق القبائل في دلس أخاه خير الدين حاكمًا للنّاحية، فأقام فيها لمدّة زمنية قصيرة حتى استتبّ الأمر بها نظرا لمكانها الاستراتيجي ومنها انطلق ليستولي على القلّ، وهذا ما بين عامي: 918 و923 هـ[1] .

---

(1) انظر: مجلة الأصالة، إصدار: وزارة الأوقاف والتّعليم الأصلي، السّنة: الرّابعة، العدد: 26، رجب/ شعبان 1395هـ/ 1975، ص26. وكذا: وليم سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر تعريب وتعليق: د عبد القادر زبادية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر، سنة 1980م، ص: 27.

(1) انظر: عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، دار الثقافة، بيروت، ط: 6، سنة: 1403هـ/ 1983م، ج: 2، ص: 42.



[خريطة الجزائر التركية]

5. دلّس في العهد الفرنسي

تـمّ احـتلال مدينـة دلـس مـن طـرف الغـزاة الفرنـسيين في سـنة 1834 مـيلادي ثـمّ تخـلّى عنهـا وتركهـا لـشدة مقاومة أهلهـا، ثـم أعـاد الكـرّة عليهـا مـرّة ثانيـة بعـد مـا مهّـد لهـا تمهيـدا جيـدا فاسـترجعها سـنة1844 مـيلادي واحتلهـا نهائيـاً ليتخـذها مركـزاً اسـتراتيجيا لجيـشه فبنـى فيهـا ثـلاث ثكنـات عـسكرية واحـدة شرقـاً إزاء بـاب البحـر الـشرقية المؤديـة إلى عـرش بنـي سـليم وثكنـة (رونـو) وتقـع بجانـب بـاب الجزائـر الجنوبيـة لمراقبـة أهـالي القـرى المجـاورة للمدينـة كعـرش بنـي ثـور، وبنـى ثكنـة ثالثـة بجانـب بـاب الـسور الغربيـة المؤديـة إلى البـساتين وتاقـدمت والجزائـر العاصمة وواد ساباو.

كـما بنـى مستـشفى عـسكرياً لعـلاج وراحـة جنـوده فـوق مكـان المـسجد القـديم للمدينـة ليـشرف عـلى الجهـة الـشّرقية والبحريـة وعـوّض لأهلهـا مـسجدا آخـر أوسـع مـن الأوّل وأمـتن بـالقرب منـه غربـاً لا يفـصل بيـنهما إلاّ الطّريـق الرّئيـسي للمدينـة، كـما شـيّد كنيـسة للنـصارى وحيّـيْن: حيًّـا مـن الجهـة الجنوبيـة وحيًّـا مـن الجهـة الشّمالية والغربية ليسهل عليه مراقبة الدّاخل والخارج والجديد والقديم.

وبنـى مقـرًّا للحـاكم العـسكري أمـام مفـترق الطّـرق: أمـام طريـق الجبّانـة (تـسمّى عنـد أهـل المدينـة طريـق رحـى الـرّيح)، ثـمّ بنـا مدرسـة فرنـسية مواجهـة للبـاب التـي تـسمى بـاب الجزائـر أو بحـاير العـسكري، وبنـا سـوقا مغطـاة ثـمّ حوّلـت إلى مقـرّ دار البلديـة، ثـم أحـاطوا الحيَّـيْن الفرنـسيين بـسور حجـري مربـوط بالـسّور القـديم الـذي كان حدّه دار البلدية الآن والذي جُدِّد بناؤه في عهد الأتراك.

image
not
available

image
not
available

image not available

image
not
available

image
not
available

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.